(٣)

لمحات تاريخية من حياة ابن تيمية

بقلم : الطالب صالح بن سعيد بن هلابي .

لم يكن ابن تيمية العالم المجتهد في علوم الشريعة وفروعها أو الناقد اللاذع لخصومه من المخالفين له في العقيدة او المحدث البارع في علوم الحديث ومعرفة طبقات الرجال ، ولم يكن ذو عقلية جبارة عظيمة حتى وصل به الحد أن ينال من كبـار الفلاسفة والمناطقة وبيان اخطائهم وهفواتهم في علومهم التي أدخلوها في علوم الشريعة ، لم يكن كل هذا فحسب وانما كان ايضاً مع هذا كله قائداعسكريا عظيما وسياسيا محنكا نابغا فقد كتب الرسائل العديدة في السياسة الاسلامية من اهمها «رسالة - السياسة الشرعية بين الراعي والرعية -» ورسالة (الحسبة في الاسلام، او وظيفة الحكومة الاسلامية) وفتاوى اخرى لاتحصى مما حدا بالمستشرق الفرنسي (هنري لا وست) ان يجمع آراءه السياسية والاجتماعية وأن يجعلها موضوعا لاحدى الرسالتين اللتين تحصل بهما على الدكتوراه من باريس كما أشرت الى ذلك في الحلقة الاولى من هذه المجلة الغراء في العدد الرابع من السنة الاولى .

ابن تيمية وعهد التتـار :

واجهت العالم الاسلامي في القرن السابع الهجري هزة عنيفة وكارثة يندر نظيرها في تاريخ العالم كله منذ أن خلق الله الدنيا بكاملها اللهم الا ماكان من الحرب العالمية الاولى والثانية والتي ذهب الملايين فيهما ألا وهي هجوم التتار على العالم الاسلامي حيث كان بلاء عظيما ومحنة لاتقاس بأى محنة عادية تمر على المسلمين مر الكرام - فقد بدأ هؤلاء الوحوش في بخارى ودمروها ثم توجهوا الى سمر قند

وأبادوها ثم على قزوين ومرو ونيسابور حتى وصلت جيوشهم الى بغداد وهناك قامت المذابح ودمرت المدن بكاملها واستمر القتل بضعا وثلاثين يوما حتى تعفنت الشوارع من الجثث المرمية فيها ولايستطيع القلم أن يصف فى هذه العجالة ماجرى من محن وبلاء ويكفينا ان نقتطف كلمة المؤرخ الاسلامى الشهير (ابن الاثير) المتوفى سنة ٦٣٠هـ حيث كتب لنا عن تلك الحوادث المروعة وقلبه يتفطر ألما وحسرة ولايجرى القلم بما يكن فى الصدر ٠

يقول ابن الاثير : «١» (لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر اخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فياليت أمى لم تلدنى وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا الا أنى حثنى جماعة من الاصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت ان ترك ذلك لايجدى نفعا ــ الى أن قال ــ وهذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقت الايام والليالى عن مثلها وعمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل ان العالم منذ أن خلق الله تعالى آدم الى الان لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فان التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولا مايدانيها ولعل الخلق لايرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم ،وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة فانا لله وانا اليه راجعون) الى اخر ماكتبه رحمه الله بكل حسرة وندامة ٠ «٢» ٠٠

التتار على ابواب الشام :

ماأن وصلت انباء التتار بانهم زاحفون على بلاد الشام وانهم يريدونها حتى بدأ الخوف والذعر فى البلاد وبدأ الناس يرحلون من الشام الى مصر والى الحصون المنيعة خارج الشام يحملون اطفالهم ونساءهم ويبيعون أمتعتهم وملابسهم بأرخص الاثمان واخذوا يشترون الحمير والبغال لكى يرحلوا عليها حتى وصل قيمة البغل والجمل الواحد ألف درهم وانتشرت الفوضى والاضطرابات فكسرت الدكاكين ونهبت أموال الناس وهرب المساجين من السجون وخرج كبار أعيان البلد ونوابها وبعض من علمائها وأخذ كل ينجو بنفسه وبأهله من هذا البلاء المقبل على الامة حتى أصبح لايتكامل الصف الواحد فى يوم

١ـ فى كتابه (الكامل) ج ١٢

٢ـ انظر تفاصيل هذه الحوادث فى تاريخ الكامل لابن الاثير ج١٢ والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٣٠٠ ودائرة المعارف للبستانى ح ٦ ص ٥١ مادة (تتر)

الجمعة فى المسجد الجامع الذى كان يغص بالمصلين ، هذه بعض روايات الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية والذى عاصر هذه الحوادث بنفسه وهو عالم الشام وشيخها وتلميذ ابن تيمية،

واذا أردنا ان نتعــــرف على هؤلاء الوحوش من هم ؟ وماهى ديانتهم ؟ حتى تعطى لنا صورة واضحــــة عن اتجاهاتهم ، انهم من جهة الصين بلى الله بهم الامة فى فتــــرة من الزمن ، أما ديانتهم فهم وثنيون يقــــول ابن الاثير : (وأما ديانتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولايحرمون شيئا يأكلون جميع الـــدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ولايعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لايعرف) أهـ ٠

ولعل الشيوعية ترجع الى أصلهم الا أن أولئك كانوا وثنيين والشيوعية لاتعترف بوجود الله مطلقا ولكن نرى أن التتار أسلـــموا فيما بعد كما سيأتى ٠

موقف ابن تيمية من الاضطرابات:

رأى ابن تيميــــة تلك الفوضى والاضطرابات والنهب والسلــب فى البلاد فوقف وقوف الجبال الراسيات

فلم يفر أو يخرج من البلد كما فعل غيره لان له قلبا يحول بينـــه وبين الفرار وله شعور يمنعه من أن يترك العامة من غير مواس وله دين يردعه من أن يترك أمور الناس فوضى لاحاكم لها وهو هو فى علمه ودينه وعظمته، أحس ابن تيمية بهذه المحنـــة فجمع اعيان البلاد الذين لم يفروا بعد ،ورد عليهم أمورهم وثبتهم وأخذ يتلو عليهم آيات القرآن الكـــريم الـــواردة فى الجهاد وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم واتفـــق معهم على ضبط الامور وأن يذهب على رأس وفد منهم يخاطبون ملك التتار فى الامتناع عن الدخول الى دمشق :

ابن تيمية فى مقابلة ملك التتار :

ذهب الشيخ ابن تيمية مع الوفد الشامى وكان رئيسا للوفد الى مقابلة (قازان) ملك التتار وقائدهم يقول ابن كثير : (وقد كسا الله الشيخ حلة من المهابة والايمان والتقى ولقد قال أحد الذين شاهدوا اللقاء ، كنت حاضرا مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله فى العدل ويرفع صوته ويقرب منه ٠٠ والسلطـــان مع ذلك مقبل عليه مصغ لما يقول شاخص اليه لايعرض عنه وان السلطان من شدة ماأوقع الله فى قلبه من الهيبة والمحبة سأل من هذا الشيخ ؟ انى لم أر مثله ولاأثبت قلبا منه ولااوقع من حديثه فى قلبى ولارأيتنى اعظم انقيادا لاحد منه فأخبر بحاله وماهو عليه من العلم والعمل) ومما خاطبـــه به فى هذه المقابلة وعن طريق الترجمـــان : «قل

لقازان انت تزعم انك مسلم «١» ومعك قاض وامام وشيـــخ ومؤذنون على مابلغنا وأبوك وجـــدك كانا كافرين وماعملا الذى عملت عاهدا فوفيا وانت عاهدت فغدرت وقلت فماوفيت وجرت ثم خرج بعد هذا القول من عنده معززا مكرما) ويقول صاحب كتاب «القول الجلى فى ترجمة ابن تيمية الحنبلى» عن هذه المقابلة (انهم لما حضروا مجلس قازان قدم لهم الطعام فأكل منه الجميع الا ابن تيمية فقيل له لماذا لاتأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ٠٠ وطلب منه قازان الدعاء له فقـــال فى دعائه : اللهم ان كنت تعلم انه انمـــا قاتل لتكون كلمة الله هى العليا وجاهد فى سبيلك فأن تؤيده وتنصره ، وان كان للملك والدنيا والتكاثر فأن تفعل به وتصنع) فكان يدعو وقازان يؤمن على دعائه ٠

يقول الراوى : حين أخذ ابن تيمية يدعو بدأنا نجمع ثيابنا خوفا من أن يقتل فى المجلس ويطرطس دمه فى ثيابنا فخرجنا من عنده وقلنـــا له : كدت أن تهلكنا معك ثم اختلفوا فى مابينهم فسلكوا طريقا وهو مع جماعة سلكوا طريقا اخر فما أن وصل الى الشام الا وهو محفوف بنحو ثلاثمئة فارس استقبلوه فى أثنـــاء الطريق وشكروه على مساعيه الحميدة التى قام بها ٠

ليت شعرى هل تعود هذه العظمة والصولة والجولة فى العالم الاسلامى لعلماء الاسلام اليـــوم أم الى اندثار ومسخ وتشويه ، والجـــواب بسيط أقول : لو وجد معشار من يقوم بعمل ابن تيمية من الاخـــلاص فى القول والعمل لصنع المعجـــزات فى تاريخنا اليوم هذا الـــذى أبى ان يأكل على مائدة هذا الطاغية الجبار وأخذ يدعو عليه فكيف بمن يحيك الفتاوى للظلمة الفجرة بديك رومى وبضع دجاجات يأكلها على حســـاب الاســـلام فهل يستطيع أن يغير شيئا فى مجـــرى التاريخ ؟ كلا وألف كلا ٠

نتائج هذه المقابلة :

انتجت هذه المقابلة خيـــرا لاهل الشام وان كانت محـــدودة حيث أمن الناس على انفسهم وأموالـــهم وأعلن الامان بمنشور عام فى البلد وسكنت النفوس واطمأنت الاحوال وبعد ايام من هذه المحنة بدأ العبث من الجند خارج المدينة وحـــاول بعض الذين مالؤا التتار تسليم القلعة الى جيوش التتار فأرسل فى الحـــال ابن تيمية الى قواد القلعة قائلا (لاتسلموا القلعة وقاتلوا دونها ولو الى اخر حجارة فيها والى آخر قطرة منكم) وكان يدور على

١– هو رابع ملك مسلم من ملوك التتار وقد توفى سنة ٧٠٣ هـ

الجنود بنفسه خـــارج المدينة وربما بات معهم الليالى يتلو عليهـم آيات الجهاد فى سبيل اللـــه ، ومن هنا ندرك شخصية هذا الامام الجليل وانه لم تكن صلته بعوام الناس فى دروس الوعظ والارشاد واثارة روح الجهادفى نفوسهم بل كانت صلته وثيقة بكبار القواد فى الجيش كما كانت مع الامراء والنواب كما ستعرف ذلك قريبا ٠

نظر ابن تيمية فى واقع الجيوش الجرارة من جيوش التتار وأنه لامفر لهم من القتال فوالى الاجتماعات وعقد المجالس المتوالية للعـــامة والخاصة وأخذ يحرض على القتال ويتلو آيات الجهاد والاحـــاديث الواردة فى ذلك وكان يتأول قوله تعالى (ومن عاقب بمثل ماعوقب به ثم بغى عليهلينصرنه اللهان الله لعفو غفور) وكان يقسم بالله عزوجل «انـــكم لمنصورون على هؤلاء» فيقول له بعض الامراء قل ان شاء اللهفيقول أقولها تحققيا لاتعليقا٠

وأخذ يراسل الملـــوك والسلاطين والامراء فى كل ناحيـــــة ، وخاصة السلطان النـــــاصر بن قـــلاوون سلطان مصر ورغب الناس فى الانفاق فى سبيل الله ، بعد هذه المجالس المتوالية أعلن اعلان عام ان لايسافر ولايخرج من البلد احد الا بمرسوم خاص :

ابن تيمية يسافر الى مصر :

طلب الامراء ونائب السلطنة بالشام من ابن تيميـــة أن يسافر الى مصر بنفسه ليستحث السلطان على المجىء ليحضر بنفسه ويدرك ماعليه الناس من من الخوف والذل والرعب ، فـــوافق ابن تيمية على السفر الى السلطان وما ان وصل الى مصر حتى وجد السلطان قد دخل القاهرة وتفرقـــت جيوشه وعساكره بعد أن سمـــع الناس انه خارج الى الشام لملاقاة التتار فاجتمع به ابن تيمية وحثه على عودة الجيش وصرخ فى وجهه قائـــــلا «ان كنتم اعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ويستغله فى زمن الامن ٠٠ الى أن قال «لو قدر أنكم لستم حكـــــامه ولا ملوكـــه واستنصركم اهله وجب عليكم النصر فكيف وانتم حكـــامه وسلاطينه وهم رعاياكم وانتم مسئولون عنهم» (١) ثم حث الامراء والسلطـــان بالخروج بالجيش الى ملاقاة العدو ، رجع ابن تيمية الى الشام ، ويقول الشيخمحمد أبو زهرة فى كتابه (ابن تيمية) عند هذه النقطة فى وصف محنـــة اهل الشام (واتاهم الامن من ثلاث نواح فابن تيمية قد عاد اليهم وهو امنهم وملاذهم وتأكدوا اقبال جند السلطان ثم تأكد لديهم أمر آخر وهو ان التتار

١ـ البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٥

قد عادوا من عامهم هذا لما احسوا بان خصومهم قد أعدوا العــدة واخذوا الاهبة ولاحظوا ضعفا فى أنفسهم ولم يتقدموا وهم على هذا الضعف»

فاذن لم يحصل قتــال فى هذه السنة وعاد ابن تيميــة الى دروسه ومجالسه العلمية وهو لم يفارقها الا بالقدر الذى يضطر اليه فى مقابلات الملوك والامراء والسلاطين ومخــاطبة القواد والاتصال بالجنود على جبهات القتال ونرى ابن تيمية فى هذه الفترة وقد صار مبســوط اليد والسلطان نراه يقيم الحدود ويحارب الرذائل ويقوم الاخلاق فى الامة يقول الحافظ ابن كثير : «دار ألشيخ تقى الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى واصحابه على الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمور وشققوا الظــروف وأراقوا الخمور وعزروا جماعة منأهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش ففرح الناس بذلك فرحا شديدا »(١)

ابن تيمية فيالميدان :

جاء التتار بجمعهم وجموعهم الى الشام سنة ٧٠٢هـ وأحاطوا بدمشق من كل مكان وارجف المرجفونوبلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاشديدا وتحالف العلماء والقضاة والامراء فى هذه المرة وابن تيمية على رأس الجميع يثبت القلوب ويعدهم بالنصر وكان يتأول قوله تعالى : (ومـن بغى عليه لينصرنه الله) وجعل يحلف باللهالذى لا اله الا هو أنكم لمنصورون فيقول له بعض الامراء قل ان شاء الله فيقول: ان شاء الله تحقيقا لاتعليقا وافتى الناس بالفطر اذ كانت هــذه وقعة «شقحب» فى رمضــان وتردد بعض الجند فى قتال هــؤلاء لانهم يزعمون انهم مسلمون فافتأهم ابن تيمية وبين حكم الاسلام فيهم وانــهم من جنس الخوارج الذين خرجوا على على ومعاوية حتى كان يقول لهم (اذا رأيتمونىوانا فى ذلك الجانب ـ اى معهم ـ وعلى رأسى المصحف فاقتلونى) وكان يدور على الجنود والامراء فى الميدان فيأكل امامهم ليبين لهم انه مفطر ويروى لهم قول الرسول صلى اللهعليه وسلم فى عام الفتح (انكم ملاقوا العــدو غدا والفطر اقوى لكم) وطلب منه السلطان قبيل المعركة ان يقف معه وتحى راية مصر فأبى قائلا (السنة انيقف الرجل تحت راية قــومه ونحن من جيش الشام لا نقف الا معهم) (٢)

بدأت المعركة والتحم القتالبين الفريقين ودارت رحى الحرب ومضى يوم كامل وهم فى معركة دائرة حتى غطاهم الليل بسواده وهربت جيوش التتار واعتصمت بالجبــال بعد ان ظلت سيوف المسلمين تنوشهم من كل

١ـ ٢ـ البداية والنهاية ج ١٤ ص ١١ ،ص ٣٦

مكان وحاصروهم حصارا شديدا فقتلوا منهم أمما لايحصى عـــددهم الا الله تعالى ، وهكذا رأت جيـوش التتار الهزيمة المنكرة ولاول مرة فى تاريخها الطويل وحروبها المدمرة حين وقف فى وجهها أمثال الامام العظيم ابن تيمية والواقع ان ابن تيمية لم ينقذ الشام أو مصر فحسب من شرور هؤلاء ولكن انقذ العرب والانسانية بكاملها حيث كانوا مخاف الشرق والغرب .

وقد كانت غاراتهـم اشبه بهزات عنيفة تغير وجه الارض .

يقول جيبون المؤرخ الغـربى فى تصوير هول الغارات الـتى يشنونها «ان بعض سكان السويد قد سمعوا عن طريق روسيا نبـأ ذلك الطوفان المغولى فلم يستطيعـوا ان يخرجوا كعادتهم الى الصيد فى سواحل انجلترا خوفا من المغول» (١)

هذه لمحات خاطفة عن هذا الامام الجليل والقائد العظيم الذى أنقذ به العالم الاسلامى كله بل والغرب كله كما رأينا من نص جيبـون ولايسع المجال لسرد كل ماقيل فى هذا الباب:

هذا هو ابن تيمية الذى آمن بوعد ربه الحق الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) وهو القـائل عزشأنه «وكان حقا علينا نصر المؤمنين» .

هذا هو ابن تيمية الذى لازال فى كثيـر من الاوساط العلمية مظلوما مبغوضا لايعرف له قـدره ولاجهاده العظيم المتواصل . وانى اسأل الله ان يهيىء لهذه الامة فى فترتها العصيبة من أمثال ابن تيميـة لينقذوا العالم الاسلامى الذى وقع تحـت ايـدى الصهيونية والشيـوعية الملحـدة والصليبية الحاقدة واليهودية المجرمة من بلاد الاسلام والمسلمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه تسليما كثيرا .

١ـ ابن تيمية للشيخ عبد العزيز المراغى .